حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الخامس ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٦ هـ / تموز ـ ٢٠١٥ م

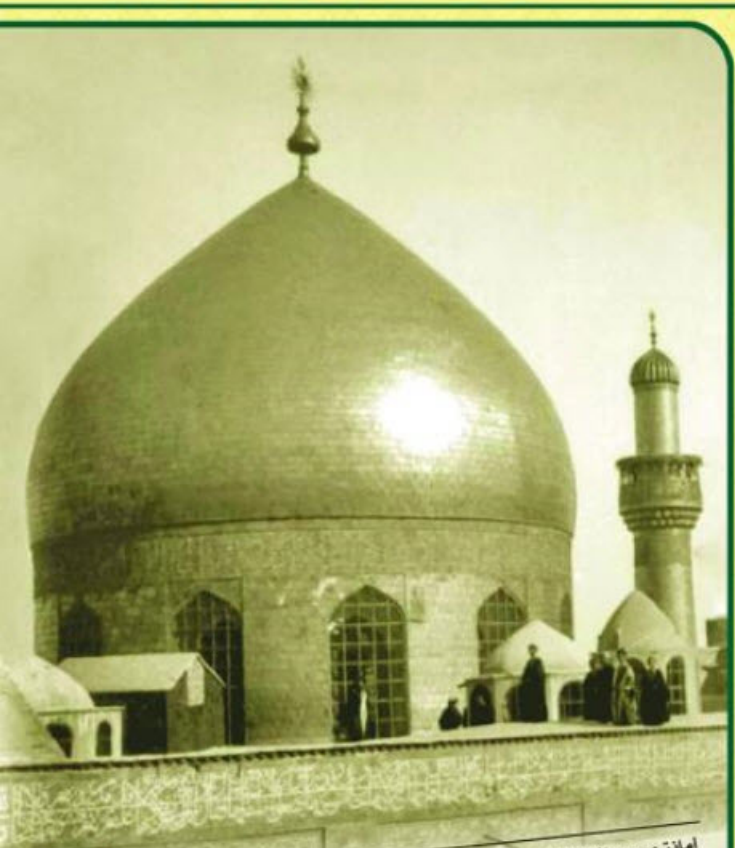

أمانة مسجد المعظم تحتفل بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على اختيار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)
الكوفة عاصمة لحكومته المباركة عام ٣٦ للهجرة

٥

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة... والفنون الجميلة

الأستاذ طالب علي الشرقي

رئيس اتحاد الأدباء والكتاب في النجف الأشرف سابقاً

الكوفة حاضرة الإسلام الثانية في العراق بعد البصرة، مصّرها سعد بن أبي وقاص في السنة السابعة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة، واختار لها أرضاً قد انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المبقّة(١). في ريف مماس إلى لسان من الرمل اليابس النافذ في منطقة تروى بمياه شط عظيم(٢)... فلقد كانت تنام على ضفة الفرات وترضع من نميره، وتفتح ذراعيها للوافدين مقاتلين ومستوطنين، وترحب بالنازحين إليها من سكان الحيرة، من أهل الحرف والعلوم والفنون.

والمشهور عن الذين استوطنوا الكوفة بعد فتح مدائن كسرى من مذحج وهمدان وكندة وحمْير وبجيلة إنهم كانوا متمدنين وصاروا سبباً لتحضر العنصر العربي في الكوفة، كما كان لجمهور الصحابة ممن بايعوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت الشجرة ومن البدريين تأثير ظاهر في نشر الوعي والمعارف الإسلامية[٣].

وبالرغم من أن الكوفة معسكر لجند الفتح فإنها لم تعدم العطاء وعلى مختلف الصعد المادية والمعنوية. ومما زاد من أهميتها نزول أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيها واتخاذها عاصمة لدولة الإسلام، فأصبحت أنموذجاً لأكبر وأنفع مدرسة علمية وأدبية في وقتها، وقد تنوعت محاور العلوم فيها فكان الفقه والنحو والحديث والتفسير وعلم الكلام والتاريخ والشعر وغيرها، وكان مسجدها المعظم خير حاضنة لطلاب المعرفة، وملتقى للمعلمين والمتعلمين[٤].

والفنون الجميلة مصطلح حديث يستفاد من هوية الأفعال المتصلة بالنشاط الإنساني المتمم للعلوم والآداب كالرسم والنحت والنقش والخط والتطريز والتزويق، إضافة إلى الموسيقى والغناء والرقص. ولا يخلو مجتمع متحضر من ممارسة بعض تلك الفنون وفق ما تقتضيه الحاجة.

أن الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية عملت على رواج كثير من الفنون، وشجعت البعض على استيراد أو تقليد بعض أصنافها، ومما رسّخ الرغبة في ممارسة بعض الفنون التي لا تمت إلى الكوفة ولا يقبلها الوسط الديني كالغناء والرقص، السكوت عن روّاد الديارات واحتضان المحترفين، وتشجيع بعض الحكام والولاة لتلك الألوان في حقبة التسلط الأموي.

لقد برزت في الكوفة موجة من اللهو ولاسيما بعد أن قلّت الفتوحات ولم يبق ما يشغل تفكير الشباب، وأصبح لديهم فراغ كبير ولم يملأه غير اللهو والعبث الذي توفرت لديهم مقوماته.. ومما ساعد الطبقة المترفة على الانغماس في هذه الحياة ما أتيح لهم من ثراء فاحش وجاه عريض وفتوّة وحيوية.. وقد جعلوا من دورهم مسرحاً تزدحم فيه الجواري والمغنيات بعد انتشار موجه الغناء والموسيقى، وكانت الحيرة مشهورة بخماراتها الكثيرة وحسن الغناء فيها[٥].

فالغناء ظهر في الكوفة وافداً إليها من الحيرة، وأخذ بالتطوّر، كما كانت النساء الأعجميات من الإماء والجواري ممن ينتمين إلى أمم مختلفة ومتباينة في العادات والتقاليد والأخلاق، كنّ من الوسائل المهمة لنقل وسائل الترف إلى بيوت العرب.. واستطعن أن يأثّرن في المجتمع الكوفي تأثيراً واضحاً[٦]. وقد اقتنى ولاة الكوفة وبعض سكانها عدداً كبيراً من هذه الجواري. على أن هذه الحياة الماجنة لاقت مقاومة شديدة أول الأمر من بعض الولاة كالحجاج بن يوسف الثقفي وخالد القسري، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل[٧]... كيف لا والخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان مرَّ بالكوفة، فلما علم «حنين» – وهو من فحول المغنين

(١) ياقوت الحموي / معجم البلدان ٤: ٤٩١.

(٢) لويس ماسنيون / خطط الكوفة وشرح خريطتها ص١٥.

(٣) الدكتور نزار الحديثي / مجلة الكوفة / المجلد ٥ / العدد ١ ص٣٠.

(٤) طالب علي الشرقي / الكوفة.. والنهضة الحسينية ص٣٩.

(٥) الدكتور محمد حسين الزبيدي / الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ص١١٦.

(٦) المصدر السابق ص٨٩.

(٧) المصدر السابق ص١١٧-١١٨.

في الكوفة – وقف له ومعه عود وزامر له، فلما مرَّ هشام تعرض له، فسأل عنه هشام فقيل له إنّه حنين، فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره، وسيّره أمامه وهو يغني له فأمر له هشام بمائتي دينار وللزامر بمائة[1]. ولما ولّي بشر بن مراون الكوفة، كان حنين يحضر مجلسه الخاص فيغني له فيأمر له بالجوائز الكبيرة. وهكذا يصدق فيهم قول الشاعر:

إذا كان رب الدار بالطبل ضارباً فشيمة أهل الدار كلهم رقص

وقدّر لغناء الكوفة أن ينهض بانتقال «ابن رامين» إلى الكوفة حيث غنّت جواريه غناءً كوفياً ممزوجاً بفن الحجاز[2].

بقي أن نشير إلى بقيّة الفنون التي تكشف عن تقدم الكوفة وازدهارها ومواكبة سكانها لركب الحضارة والتنّوع الفني في حياتهم العامة والخاصة، وإذا كانت بعض الفنون قد اقتحمت حياة الكوفيين وافدة من المحيط القريب أو مع المستورد من البضائع أو الأشخاص المهرة، فان البصمة الكوفية قد أخذت مكانها في كثير من المجالات الصناعية أو الأعمال اليدوية التي تحمل اسم الكوفة كفن التطريز مثلاً حيث أصبح لأهل الكوفة شهرة واسعة ومهارة خاصة بصناعة «الوشي» وهو نسيج حريري مطرز، و «العتابية» وهي ثياب مخططة تصنع من القطن والحرير[3] وقد انتقلت صناعة بعض الأقمشة من الحيرة إلى الكوفة ومنها الأقمشة الموشاة بالقصب والمطرزة بالذهب[4]. ومثلها صناعة السجاد، وكان يزين برسوم الحيوانات وينسج فيها صور الخيل والجمال والفيلة والطيور، كما رسمت فيها رسوم هندسية كالمستطيلات والمربعات أو غيرها بألوان زاهية مختلفة، وبعض السجاد الكوفي يعلّق للزينة ويسمى الأنماط[5] وصنع في الكوفة الأواني الفخارية والجرار ذات الألوان الزاهية، وتفنن الكوفيون في هذه الصناعة، كما نجحوا في إبداع أنواع فاخرة من الطلاء، وكان لتلوين الفخار ورسم النقوش عليه أثر في رواجه، وكانت هذه النقوش عادة على شكل رسوم هندسية كالدوائر والعقود المتشابكة والطيور المتقابلة والمتدابرة، والحيوانات التي تحيط بها فروع النباتات والوريقات فضلاً عن الرسوم الآدمية أو كتابات كوفية وتخطيطات مشجرة وصور، ومثل ذلك في الخزف والقاشاني المزجج[6].

وانتقل من الحيرة إلى الكوفة عدد كبير من الصاغة وقد لاقت هذه الصناعة في الكوفة رواجاً شديداً لزيادة الترف وتطور المجتمع السريع وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة، فيصنع لهن الأكاليل والأساور والخلاخل والمعاضد والقلائد والعقود والخواتم وغيرها، وكان بعض الأغنياء المترفين يصنعون أدواتهم من الذهب والفضة للتفاخر كالأواني والكؤوس،وفضلت في حرفتها مناظر الصيد والحيوانات والطيور، وقد أُهدي إلى مصعب بن الزبير نخلة مصنوعة من الذهب عليها أنواع الجواهر منظومة بين السعف على مثال البسر والتمر. وكان لهذه الصناعة سوق خاصة بها في الكوفة يقع بالقرب من الجامع من جهة القبلة[7].

أما بخصوص الخط الكوفي فقد نال عناية فائقة حتى أصبح الخط الذي تكتب به المصاحف والدنانير والدراهم، وصار عنصراً من عناصر تجميل البناء في العمارة الإسلامية، كما انتشر في جملة من الفنون الأخرى كاللوحات التي تزين المساجد ودور العبادة، كما اخذ موقعه على الأقمشة والأثاث والأواني[8].

أما فن النحت وصناعة التماثيل فلم يلق رواجاً، وهو في الغالب غير مرحّب به لأنه يتصل بعالم الأصنام المرفوضة شرعاً. أما النحت الذي يتكون من قَطع أو حفر رسوم أو أشكال بارزة أو عميقة على الحجر أو الخشب أو المعدن[9] فانه متحقق في الجوامع والقصور وبيوت القادة والأثرياء، فكثيراً ما تحمل جدرانها زخارف آجرية أو جصية فقد وجد مثل ذلك في جدران دار الإمارة في الكوفة تعود إلى القرن الثاني الهجري في حقبة الحكم العباسي، وقوامها قطع محززة أو محفورة ذات أشكال هندسية وخطوط مختلفة، كما عثر أيضاً على زخارف بالألوان المائية على طلاء جصي أبيض قوامها أشكال مربعة صغيرة تتصل برؤوس بعضها مع بعض فتكوّن أشكالاً هندسية متدرجة رسمت بداخلها عناصر نباتية تمثل أوراقاً أو أثماراً تشبه بعضها ثمرة الرمّان، ومنها ما رسم في داخله شكل أناء مملوء بالأثمار، كما ظهر بينها شكل طير أيضاً[10].

نخلص من كل ذلك إلى أنّ الكوفة قد تجاوبت مع روح التحضر المنفتح على المحيط وظهر فيها نشاط فني في مجالات الخط والرسم والتطريز والنحت والنقش والتزويق، ولم ينفتح فيها مجال للفنون الأخرى كالموسيقى والغناء والرقص إلاّ في بداية الحكم الأموي، وقد روى صاحب الأغاني روايات كثيرة تظهر مدى إقبال سكان الكوفة ولاسيما الشعراء منهم على الحفلات الخاصة[11]...

(١) ابو الفرج الاصفهاني / الأغاني ٢: ١١٧.
(٢) الزبيدي / المصدر السابق ص ١٢١.
(٣) المصدر السابق ص١٩١.
(٤) يوسف رزق الله غنيمة / الحيرة المدينة والمملكة العربية ص٨٢
(٥) الزبيدي / المصدر السابق ص١٩٥.
(٦) المصدر السابق ص١٩٩-٢٠٠.
(٧) المصدر السابق ص٢٠٥.
(٨) طالب علي الشرقي / مجلة الاصالة العدد ٦ ص٥٥.
(٩) شفيق غربال / الموسوعة العربية الميسرة ص ١٨٢٦.
(١٠) طالب علي الشرقي / قصور العراق العربية والاسلامية.. ص٩٥- ٩٦ عن كتاب الزخارف الجدارية.. لخالد الأعظمي ص٢٠.
(١١) الزبيدي / المصدر السابق ص١٢٣.